﴿...وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾ (٢)

محسن الأسدي.[١]

لعلّنا في هذه المقالة، نوفّق في دراسة آيات قرآنيّة، ذُكرت فيها مفردة النسك ومشتقاته، وبيان مدى علاقتها بالحجِّ والعمرة أحكاماً ومفاهيم وآداباً وتأريخاً..، بل تطلق في الأعم الأغلب على ما يتضمنه الحجُّ من شعائر وعبادات ومواقع، إن لم نقل قد اختصّت بها... وهو ما نريد الوقوف عنده في هذه المقالة بأكثر من حلقة إن شاء الله تعالى.

* * *

ما زلنا وعبر الحلقة الثانية نعيش قصة الدعاء الإبراهيمي الإسماعيلي الذي وقع في عمق التاريخ، قبل آلاف السنين، يوم أفاض الله عزَّ وجلَّ بركاته: ﴿**بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ**﴾، بوادٍ جافٍّ قاحلٍ خالٍ من الحياة، لا يعرف له اسمٌ، ولا هناك مَن يرغب فيه فيقطنه .. ومن تلك البركات أنَّه: ﴿**عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾.

فكانت هذه العندية تضفي عليه حياةً، تتجلّى بأعظم مقوماتها، وخلوداً بأجمل الصور، فما أزكاها وأثمرها من حياة، انبثقت من ذلك البيت، فأفاضها القرب المبارك

---

١. محقّق وباحث ديني.

على هـذا الـوادي؛ ليخلـد في النفـوس حـين راحـت تهـوي إليـه أفئـدةٌ مـن النـاس وما زالـت! فـما أعظمه مـن قـربٍ، ومـا أجلَّه من جـوارٍ!

* * *

بـدءًا بدعائهـماعليهما السلام ـ وقـد ذكرناه في الحلقة السـابقة ـ الذي تذوّقا به الإسـلام وحلاوة مضامينـه..: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْـلِمَيْنِ لَكَ**﴾.

وخلاصتـه: أنَّ ابـن عبـاس وفي قولٍ وابـن عوف بن الأعـرابي قرآ «مسـلِمِين» بصيغةِ الجمـع. وروي هـذا في الشـواذ كما جاء عن الشـيخ الطـوسيقدس سره في تبيانه.

وذكرنـا أيضـاً تأويلـين لذلك: أحدُهمـا: أنهما أَجْرَيَـا التثنية مجْـرَى الجمعِ، وبه اسـتدلَّ مَـنْ يَجْعَـلُ التثنيـةَ جمعاً. والثـاني: أنهما أرادا أنفسـهما وأهلَهـما كهاجر.

وأنَّ لهم في ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ أقوالاً:

وذكرنـا بعضهـا، وكان منهـا قول الشـيخ الطـوسيقدس سره، وتبعه الطبرسيقدس سره مضيفـاً أنَّه: **قيـل**: إنَّ معنـى مسـلمين موحديـن مخلصين لـك لا نعبد إلّا إيـاك ولا ندعو ربًّا سـواك.

وقيـل: قائمـين بجميـع شرائـع الإسـلام مطيعـين لـك؛ لأنَّ الإسـلام هـو الطاعـة والانقيـاد والخضـوع وتـرك الامتنـاع.

﴿**مُسْـلِمَيْنِ**﴾. مخلصـين لـك أوجهنـا، مـن قولـه: ﴿...**أَسْـلَمَ وَجْهَـهُ لِلهِ**...﴾.[1] أو مستسـلمين. يقال: أسـلم له وسـلم واستسـلم، إذا خضع وأذعن. والمعنـى زدنا إخلاصاً أو إذعانـاً لـك.

وقولهـما: ﴿**رَبَّنَـا وَاجْعَلْنَـا مُسْـلِمَيْنِ لَـكَ**...﴾، يفيـد الحـصر بكلمة (لـك) أي نكون مسـلمين لـك مخلصـين لـك، لا لغـيرك، كذلـك فيـما تمنيـاه في دعائهـما لبعـض ذريتهـما: ﴿...**وَمِـن ذُرِّيَّتِنَـآ أُمَّةً مُّسْـلِمَةً لَّـكَ**﴾....

١. سورة البقرة: ١١٢.

وهو ما سنؤخر الكلام عنه حتى نصل إلى: ﴿... **مُّسْلِمَةً لَّكَ**...﴾.[1]

ثـمَّ إنهـما بعـد دعائهـما لنفسـيهما بالإسـلام: ﴿...**رَبَّنَـا وَاجْعَلْنَا مُسْـلِمَيْنِ لَـكَ**...﴾. لم يقفـا عنـد هذا الدعـاء، دون أن يواصـلا دعاءهما أن تنـال هذه الذرية؛ بعضهـا، ولأجيالها القادمـة بالهداية والإسـلام؛ فنعمة الإسـلام، نعمـة عظيمة ما كان لإبراهيم ولا إسـماعيل إلّا أن يطلباهـا لذريتهـما. فانصـبَّ دعاؤهمـا إمـا للذريـة جميعهـا وإمـا لبعض منهـا ـ على الاختـلاف ـ أن تحظـى بهذه النعمـة الطيبة. فقالا: ﴿...**وَمِـن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْـلِمَةً لَّكَ**...﴾. وهنـا لابـدَّ لي مـن وقفة عنـد (مِـن) المذكـورة في الآيـة: فمعرفة هـذا الأمر يهمنـا وينفعنا في الموقـف اللغـوي والنحـوي فالعقـدي من: ﴿**مِنْهُـمْ**﴾. الـواردة في الآيـة الآتيـة: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِـمْ رَسُـولاً مِّنْهُمْ**...﴾.

وخصوصـاً في دخولهـا عـلى الضمائـر، وقـد دخلـت، وذكـرت في الكثـير مـن الآيات القرآنيّـة، حتـى صارت سـاحة نـزاع علميّ بـين العلـماء، ومعركة لـلآراء قديـماً وحديثاً، ويتّضـح هذا النـزاع والاختلاف جليًّا؛ خصوصاً في تفسـيرهم للآية٢٩ من سـورة الفتح. فهـل هـي في هذه الحالـة بعضيّـة أو بيانيّـة؟ وبالتـالي إن قلنا بـالأولى فقد بعث ﴿**رَسُـولاً**﴾ في ﴿**رَبَّنَـا وَابْعَـثْ فِيهِـمْ رَسُـولاً مِّنْهُمْ** ...﴾. من قسـم أو فريـق خاص، وإن قلنـا بالثانية فعندئـذ تكـون بعثته صلى الله عليه وآله مـن جميعهم...!

و (مِـن) وإن تعـددت معانيهـا أو أقسـامها، حرف جـرٍّ تدخل على الأسـماء والضمائر، ولكـن يبـدو أنَّ في دخـول (مِـن البيانيـة) عـلى الضمائـر خلافـاً بينهـم. نعـم تدخـل على الأسـماء الظاهـرة، هـذا متفـق عليـه في الغالـب ، وقد استشـهد عـدد من المعنيـين باللغة والنحـو والتفسـير بآيـات قرآنيّة منهـا: ﴿...**فَاجْتَنِبُـوا الرِّجْـسَ مِنَ الأَوْثَـانِ**...﴾.[2]

---

١ . تفسـير الـدرّ المصون، السـمين الحلبـي ؛ التبيان للشـيخ الطوسي ؛ مجمـع البيان للطبرسي ؛ الكشـاف للزمخـشري ؛ تفسـير المحـرر الوجيز في تفسـير الكتـاب العزيـز ، ابن عطية وغيرهـا: الآية.

٢ . سورة الحجّ : ٣٠ .

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾.[1]

ولكن الذي يفيدنا هو في دخولها على الضمائر، وفي هذه الحالة أتفيد التبعيض دون التبيين، أو تفيدهما معاً، أو أنَّها بيانيّة؟

ففي (مِن) أقوال: أحدها: أنَّها للتبعيض. وعلامتها جواز الاستغناء عنها بـ (بعض)، ومجيئها للتبعيض كثير. والثاني: أنَّها للتبيين، أو بيانية للجنس. والثالث: أن تكون لابتداءِ غايةِ الجَعْل. والرابع: أنّها للتوكيد.

ولقد فصّل فيها المرادي المالكي (ت: ٧٤٩هـ) فذكر أنَّ: مِن: حرف جرّ، يكون زائداً، وغير زائد، فغير الزائد له أربعة عشر معنى:

الأول: ابتداء الغاية. الثاني: التبعيض، نحو ﴿**منهم مَن كلم الله**﴾. وعلامتها: جواز الاستغناء عنها ببعض، ومجيئها للتبعض كثير. الثالث: بيان الجنس، نحو: ﴿**فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ**﴾. ﴿**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ**﴾. قالوا: وعلامتها أن يحسن جعل الذي مكانها؛ لأنَّ المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن. ومجيئها لبيان الجنس مشهور في كتب المعربين، وقال به قوم من المتقدمين والمتأخرين. وأنكره أكثر المغاربة، وقالوا: هي في قوله تعالى: ﴿**من الأوثان**﴾، لابتداء الغاية وانتهائها؛ لأنَّ الرجس ليس هو ذاتها، فمن في الآية كمن في نحو: أخذته من التابوت. وأما قوله: من سندس، ففي موضع الصفة، فهي للتبعيض.[2]

أما ابن هشام (ت٧٦١هـ) في المغني، فيذكر أنَّ (مِن)، تأتي على خمسة عشر

---

١ . سورة الكهف : ٣١ .

٢ . انظر كتاب الجنى الداني في حروف المعاني، ابن أُمّ قاسم المرادي أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت : ٧٤٩هـ). المحقق: د فخر الدين قباوة الأستاذ محمد نديم فاضل. الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان : ٣٠٨-٣١٠ .

وجهاً:.. الثاني: التبعيض، نحو: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾.[1] وعلامتها إمكان سدّ بعض مسدّها، كقراءة ابن مسعود (حتى تنفقوا بعض ما تحبون). الثالث: بيان الجنس، وكثيراً ما تقع بعد ما ومهما، وهما بها أولى؛ لافراط إبهامهما نحو: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾.[2]

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ...﴾.[3] ﴿...مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ...﴾.[4] وهي ومخفوضها في ذلك في موضع نصب على الحال. ومن وقوعها بعد غيرهما: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾....[5]

الشاهد في غير الأولى فإن تلك للابتداء، وقيل: زائدة. ونحو: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾.[6]

وأنكر مجيء (مِن) لبيان الجنس قوم، وقالوا: هي في ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ و ﴿مِّن سُنْدُسٍ﴾، للتبعيض، وفي ﴿مِنَ الأَوْثَانِ﴾ للابتداء، والمعنى فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو عبادتها، وهذا تكلف.

ولكنه لم يقف عند عرضه المسألة العلميّة اللغويّة، بل نقل عما فى كتاب المصاحف لابن الأنباري (ت٣٢٨هـ): أنَّ بعض الزنادقة تمسّك بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾.[7] في الطعن على بعض الصحابة؛ والحقّ أنَّ (مِن) فيها للتبيين لا للتبعيض، أي الذين آمنوا هم هؤلاء ومثله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ

---

١ . سورة البقرة : ٢٥٣ .

٢ . سورة فاطر : ٢ .

٣ . سورة البقرة : ١٠٦ .

٤ . سورة الأعراف : ١٣٢ .

٥ . سورة الكهف : ٣١ .

٦ . سورة الحجّ : ٣٠ .

٧ . سورة الفتح : ٢٩ .

﴿وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[1] وكلّهم محسن ومتّق. ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فالمقول فيهم ذلك كلّهم كفار.[2]

أقول: ولا أدري لماذا وصف ابن الأنباري هذا الفريق بالزندقة، على ما حكاه ابن هشام عنه، ولم يفعل الفريق المذكور شيئاً، إلّا أنّه تمسّك بما ذكرتم من شروط عمل (مِن البيانية) لاغير. وهو ليس طعناً بقدر ما هو تمسّك بقيد عملها، فأخذ هذا التمسك به إلى أنَّ (مِن) في مِنْهُم، في الآية: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾. ليست بيانيّة بل هي بعضيّة، وبالتالي فإنَّ بعضهم صالح لنيل هذه المغفرة والأجر العظيم، وهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾.

وبعضهم غير صالح لهذا، فالموعود بالمغفرة بعضهم دون كلّهم. فيما ذهب آخرون إلى كونها بيانيّة، وبالتالي تشملهم جميعاً بلا استثناء، ولكلٍّ من المتخاصمين دليل يركن إليه...

هذا ومادام الاختلاف في دائرة الدليل، وحيثما مال نميل كما يُقال، فلا ضير، نعم اعطاء الرأي أو الالتزام بقول وموقف بلا حجّة ولا برهان، يعدُّ اتباعاً للهوى، وكذا محاولة جعل الدليل تابعاً للموقف وتسخيره للآراء، بمعنى أن يكون الدليل تابعاً لنا بدل أن نكون تابعين له، هو الذي يشكل خطورةً وضرراً بالغاً على البحث العلمي النزيه، وهو موقف باطل قطعاً، وباطل ما يترتب عليه ...!

---

١. سورة آل عمران: ١٧٢.

٢. مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري (ت٧٦١ هـ) ١: ٣١٨ـ٣١٩؛ حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، للشيخ مصطفى محمد عرفة الدسوقي (ت١٢٣٠ هـ) ٢: ٢٥٧؛ تفسير المفردات وذكر أحكامه، حرف الميم؛ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢: ٢٩٣ـ٢٩٤ (مِن).

هـذا وأنَّ ذلـك يتضـح جليلاً بـين أهل التفسـير في ﴿مِنْهُـم﴾ الـواردة في الوعد الإلهي الـذي ذكرتـه الآيـة ٢٩ من سـورة الفتـح: ﴿وَعَـدَ اللهُ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَعَمِلُـواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيماً﴾.

وسـورة الفتـح نزلـت في السـنة السادسـة مـن الهجـرة النبويّـة بـين مكـة والمدينة عند مرجعـه صلى الله عليه وآله ومـن معه مـن المسـلمين مـن الحديبيـة، أي عقـب صلـح الحديبية.[1]

فمـن جعلهـا بيانيـة لا تبعيضيـة، ذهب إلى شـمولها لمطلـق الصحابة ـ ووسـعوا ذلك لتشـمل حتـى مَن لم يكن في الحديبيـة، ووفّق للإسـلام بعدها، ولمن جاء بعدهـم إن اقتفى أثرهـم، أي التابعـين ـ مدحـاً لهم، ووعـداً لهم جميعاً بالمغفـرة والأجر العظيـم، دون النظر إلى شرطيـة بقـاء الإيمان والعمـل الصالح واسـتمرارهما...، واتخذوها دليـلاً على عدالتهم جميعـاً، وعـدم جـواز التعـرّض لهـم حتـى بالنقـد فضلاً عـن غـيره؛ لوجـوب احترامهم وتوقيرهـم وتعظيمهم والثنـاء عليهم...!

وهـذا الفريـق اسـتدل بدخـول (مِـن) البيانيـة عـلى الأسـماء، وهـو أمـر مفـروغ منه، وكلامنـا في جـواز دخولهـا عـلى الضمائـر بالقيـود التي ذكرهـا ابن هشـام، ومـن قبله ابن أُمّ قاسـم المرادي.

ويبـدو مـن أهـل التفسـير أنَّـه لا فـرق عندهم بـين دخولهـا عـلى الأسـماء أو الضمائر، أو أنَّ هنـاك تقاربـاً بـين كلٍّ مـن البيانيـة والبعضيـة، يصعب التفريـق بينهـما إلّا بجهد، أو لمعنـى خفـي، أو للسـياق... أو أنَّ للموقـف مـن (عدالـة عمـوم الصحابة) أثـراً ضاغطاً عـلى بعض المفسريـن لاختيـار إحداهمـا على الأُخـرى...

الزمخشري: ومعنى ﴿مِنْهُم﴾ البيان، كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾.

ابـن كثـير: مِـن هـذه لبيـان الجنـس ﴿مَغْفِـرَةً﴾ أي لذنوبهـم ﴿وَأَجْـراً عَظِيمـاً﴾ أي ثواباً جزيـلاً ورزقـاً. ووعـد الله حـقٌّ وصـدق لا يخلـف ولا يبـدل، وكلّ مـن اقتفـى أثـر

١ . أسباب نزول القرآن للواحدي : الآية .

الصحابـة، فهـو في حكمهـم، ولهـم الفضـل والسـبق والكمال الـذي لا يلحقهـم فيه أحد من هـذه الأمّـة...

القرطبـي في الرابعـة: قولـه تعـالى: ﴿**وَعَـدَ اللهُ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ**﴾، أي وعـد الله هـؤلاء الذيـن مـع محمـد، وهم المؤمنـون الذيـن أعمالهم صالحـة ﴿**مَغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيمـاً**﴾، أي ثوابـاً لا ينقطـع وهـو الجنة. وليسـت (مِن) في قولـه: (منهـم) مبعّضة لقوم مـن الصحابة دون قـوم، ولكنهـا عامة مجنّسـة، مثل قوله تعـالى: ﴿**فَاجْتَنِبُـواْ الرِّجْسَ مِـنَ الأَوْثَانِ**﴾. لا يقصـد للتبعيـض، لكنه يذهـب إلى الجنـس، أي فاجتنبوا الرجـس من جنـس الأوثان، إذ كان الرجـس يقـع من أجناس شـتَّى، منها الزنى والربـا وشرب الخمر والكـذب، فأدخل (مِـن) يفيد بها الجنس وكذا (منهم)، أي مـن هذا الجنس، يعني جنـس الصحابة. ويقال: أنفـق نفقتـك مـن الدراهـم، أي اجعـل نفقتـك هـذا الجنـس. وقـد يخصـص أصحـاب محمـد ﷺ بوعـد المغفرة تفضيـلاً لهـم، وإن وعد الله جميـع المؤمنـين المغفرة.

وفي الآيـة جـواب آخـر: وهـو أنَّ (مـن) مؤكـدة للـكلام، والمعنـى وعدهـم الله كلَّهم مغفـرة وأجـراً عظيماً. فجرى مجرى قول العربي: قطعـت من الثوب قميصـاً يريد قطعت الثـوب كلّـه قميصـاً. و (مـن) لم يبعـض شـيئاً. وشـاهد هـذا مـن القـرآن ﴿**وَنُـنَزِّلُ مِـنَ الْقُـرْآنِ مَـا هُوَ شِـفَآءٌ**﴾.[1]

معنـاه وننـزل القرآن شـفاء؛ لأنَّ كلّ حرف منه يشـفي، وليس الشـفاء مختصًّا به بعضه دون بعـض. عـلى أنّ مـن اللغويـين مـن يقـول: (مـن) مجنسـة تقديرها ننـزل الشـفاء من جنـس القـرآن، ومن جهـة القـرآن، ومن ناحيـة القرآن.

قـال زهـير: أمـن أمّ أوْفَى دِمْنَـةٌ لم تَكَلَّـم، أراد مـن ناحيـة أمّ أَوْفَى دِمْنَـةٌ، أم مـن منازلها دِمْنَة.

وقال الآخر: أخُو رغائبَ يعطيها ويسألها* يأبى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ.

---

١ . سورة الإسراء: ٨٢.

فـ(مـن) لم تُبَعِّـض شـيئاً، إذ كان المقصـد يأبـى الظلامـة؛ لأنـه نَوْفَـلٌ زُفَـرُ. والنَّوْفَـل: الكثـير العطـاء. والزُّفَـر: حامـل الأثقـال والمـؤن عـن الناس.

وقـد سـبقه ابـن عطيـة في هـذا، حيـث يقـول: ﴿**منهـم**﴾ هـي لبيـان الجنس وليسـت للتبعيـض؛ لأنـه وعـد مـرجٍ للجميع.

وأمـا أبوحيـان فقد استشـهد بقـول ابـن عطيـة : وقوله منهـم، لبيان الجنس وليسـت للتبعيـض؛ لأنَّـه وعـد مـدح للجميـع. (وفي الأصـل مـرجٍّ) بعد أن ذكـر التـالي: ومعنى: ﴿**منهـم**﴾: للبيـان، كقولـه تعـالى: ﴿**فَاجْتَنِبُـواْ الرِّجْسَ مِـنَ الأَوْثَانِ**﴾.

وإلى هـذا ذهـب غيرهم **كالسـمين الحلبـي** القائـل: قولـه: (مِنْهم)،(مِنْ) هـذه للبيانِ لا للتبعيضِ...

والغرناطي ابن جزى: (مِنْهُم) لبيان الجنس لا للتبعيض؛ لأنه وعد عمَّ جميعهم...[1]

فيـما الـذي جعلهـا تبعيضية، ذهـب إلى أنَّها تخـصُّ مَن أقـام منهم على الإيـمان والعمل الصالح...

وهـو مـا ذكـره **الزجاج** في الوجـه الثاني لهـا:.. والوجه الثاني أن يكـون المعنى وعد الله الذيـن أقاموا منهـم على الإيمَانِ والعمـل الصالح مَغْفِـرةً وأجراً عظيماً.

واكتفى **ابن الجوزي** بهما.

وكـذا قالـه الطـبرسي: أي وعـد من أقام عـلى الإيـمان والطاعـة ﴿**منهم مغفـرة**﴾، أي سـتراً عـلى ذنوبهم الماضيـة ﴿**وأجـراً عظيمـاً**﴾، أي ثواباً جزيـلاً دائماً.

---

١ . تفسـير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، تفسـير الكشـاف، الزمخشـري (ت ٥٣٨هـ) ؛ تفسير الجامـع لأحـكام القـرآن، القرطبي (ت٦٧١هـ) ؛ تفسـير المحرر الوجيز في تفسـير الكتـاب العزيز، ابـن عطيـة (ت ٥٤٦ هـ) ؛ تفسـير البحـر المحيـط، أبو حيـان (ت ٧٥٤ هـ) ؛ تفسـير الـدر المصون، السـمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ) ؛ تفسـير التسـهيل لعلوم التنزيـل، ابن جزي الغرناطـي (ت ٧٤١ هـ)

٢٩: الفتح .

أما السيد العلّامة في ميزانه: فله كلام مفصل و ردود لأدلة أقوال جعلتها بيانية، نكتفي منه بهذه الخلاصة: وقوله: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾. ضمير ﴿**منهم**﴾ للذين معه، و ﴿**مِن**﴾ للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم، ويفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوثاً وبقاءً وعمل الصالحات، فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾،[1] أو آمن أولاً ثم أشرك وكفر كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**﴾...، إلى أن قال: ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾.[2] أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك وآية التبيّن في نبإ الفاسق وأمثال ذلك، لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم...

وقيل: إنَّ ﴿**مِن**﴾، في الآية بيانية لا تبعيضية، فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه. ويردُّ السيد هذا القيل بقوله: وهو مدفوع ـ كما قيل ـ بأنَّ ﴿**مِن**﴾ البيانية لا تدخل على الضمير مطلقاً في كلامهم، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى: ﴿**لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ**﴾.[3] مبني على إرجاع ضمير تزيلوا إلى المؤمنين وضمير ﴿**منهم**﴾ للذين كفروا، وقد تقدم في تفسير الآية أنَّ الضميرين جميعاً راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكة فتكون ﴿**مِن**﴾ تبعيضية لا بيانية...

وتبعه في هذا **الشيخ جعفر السبحاني**، وله أيضاً كلام مفصل وردود، يبدؤها بأنَّ كلمة (منهم) تعرب عن أنَّ المغفرة لا تعمّ جميع الأصحاب، بل هي مختصة بطائفة دون أخرى. وما ربما يقال من أنَّ (من) بيانية لا تبعيضية غير تام؛ لأنَّ من البيانية لا

---

١ . سورة التوبة: ١٠١.

٢ . سورة محمد: ٣٠.

٣ . سورة الفتح: ٢٥.

تدخل على الضمير، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾...[1]

والحاصل: إنه لا يمكن القول بشمول أدلة المغفرة والأجر العظيم لقاطبة من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله مع أنهم على أصناف شتى...

الشيخ مكارم: ويضيف القرن مختتماً بهذه الآية المباركة: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾، بديهي أنّ أوصاف أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله التي وردت في بداية الآية محل البحث جمعت فيها الإيمان والعمل الصالح، فتكرار هذين الوصفين إشارة إلى استمرارهما وديمومتهما؛ أي أنَّ الله وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله واستمروا بالإيمان والعمل الصالح، وإلّا فإنَّ مَن كان يوماً مع النبيّ صلى الله عليه وآله ويوماً آخر مع سواه وعلى خلاف طريقته، فلا يشملون بهذا الوعد أبداً، والتعبير بـ: ﴿**مِنْهُم**﴾ مع الالتفات إلى هذه المسألة، وهي أنَّ الأصل في كلمة ﴿**مِنْ**﴾ في مثل هذه الموارد التبعيض، وظاهر الآية يعطي هذا المعنى أيضاً، وهذا التعبير يدل على أنَّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله ينقسمون قسمين ـ فطائفة منهم ـ يواصلون إيمانهم وعملهم الصالح وتشملهم رحمة الله الواسعة وأجره العظيم، وطائفة يحيدون عن نهجه فيحرمون من هذا الفيض العظيم. وليس معلوماً السبب في إصرار بعض المفسرين على أنَّ ﴿**مِنْ**﴾ في كلمة ﴿**مِنْهُم**﴾ بيانية حتماً، في حين لو ارتكبنا خلاف الظاهر، وقلنا: إنَّ ﴿**مِنْ**﴾ هنا بيانية، فكيف يمكن أن ندع القرائن العقلية هنا، فلا أحد يدعي أبداً أنَّ جميع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله معصومون، وفي هذه الصورة يزول احتمال أنَّ كلّ واحد منهم بقي على عمله الصالح وإيمانه، ومع هذه الحال، فكيف يعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم دون قيد وشرط سواء عملوا الصالحات في طول

١. سورة التوبة: ١٠١.

مسيرتهم، أو أن يعملوا الصالحات في وقت، ثم ينحرفوا من منتصف الطريق...[1]

إذن فالفريق الرافض لبيانيتها يذهب إلى أنَّها لا تدخل على الضمائر مطلقاً، وإن دخلت فهي تبعيضية، ويؤيد هذا عدم ورود (ما) أو (مهما) في السياق، وهذا يرجح أن لا تكون (﴿مِنْ﴾) بيانية.

أقول: ويا ليت مَن ذهب إلى الإطلاق في قوله: مِن البيانية لا تدخل على الضمير مطلقاً، دلَّنا على المصدر اللغوي أو النحوي الذي يقول بهذا الإطلاق، أو أشار إلى مَن يذكر شروط وصفها بالبيانيّة! وجنبنا عناء البحث! فلقد تابعتُ ما تيسر لي من مصادر اللغة فلم أوفق لذلك! وكلُّ ما ذكره ابن هشام عنها هو:.. وكثيراً ما تقع بعد ما ومهما، وهما بها أولى لافراط إبهامهما... وابن أُمّ قاسم المرادي، وهو ما ذكرناه أعلاه.

وثالث جوّز أو ذكر الاثنين: **الشيخ الطوسي**: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يعني من عرف الله ووحده وأخلص العبادة له وآمن بالنبيّ ﷺ وصدقه ﴿**وَعَمِلُوا**﴾ مع ذلك الأعمال ﴿**الصَّالِحَاتِ مِنهُم**﴾.

قيل: إنه بيان يخصّهم بالوعد دون غيرهم.

وقيل: يجوز أن يكون ذلك شرطاً فيمن أقام على ذلك منهم؛ لأنَّ من خرج عن هذه الأوصاف بالمعاصي، فلا يتناوله هذا الوعد ﴿**مَغفِرَةً**﴾، أي ستراً على ذنوبهم الماضية ﴿**وأجراً**﴾ أي ثواباً ﴿**عظيماً**﴾ يوم القيامة. فيما لم يذهب الشيخ إلى التبعيضيّة في تفسيره ﴿**مِنْهُمْ**﴾ في الآية: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾.[2] بل إلى أنَّ قوله: مِنْهُمْ، معناه تبيين الصفة

---

١ . معاني القرآن وإعرابه للزجاج، الآية: ٢٩ الفتح ؛ تفسير زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ؛ مجمع البيان، للطبرسي ؛ تفسير الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي (ت١٤٠١هـ) ؛ كتاب الأمثال في القرآن الكريم للشيخ جعفر السبحاني : ٢٥٤ ؛ وكذا الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ مكارم الشيرازي، الآية: ٢٩ من سورة الفتح.

٢ . سورة آل عمران: ١٧٢.

لا التبعيض.

وكـذا ذهـب **الميرزا محمـد المشـهدي** في تفسـيره لهـذه الآيـة إلى البيانيـة حيـث يقول: ﴿**لِلَّذِيـنَ أَحسَـنُوا مِنْهُـمْ وَاتَّقَوا أَجرٌ عَظِيـمٌ**﴾، بجملتـه، و ﴿**مِنْ**﴾ للبيـان، والمقصود من ذكـر الوصفـين، المـدح والتعليـل، لا التقييـد، لأنَّ المسـتجيبين كلّهـم محسـنون متقون.[1]

القشيري: قوله: ﴿**مِنْهُمْ**﴾ للجنس، أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان.[2]

أقـول: (للذيـن ختـم لهم منهـم بالإيمان) هـو التبعيض بعينـه، أي الذي لم يبـدل إيمانه حتـى نال حسـن العاقبة.

الطنطـاوي: (مـن) في قولـه: (مِنْهُـم) الراجـح أنهـا للبيـان والتفسـير، كـما فى قولـه تعـالى: ﴿**فَاجْتَنِبُـواْ الرِّجْـسَ مِنَ الأَوْثَـانِ**﴾. أى وعـد الله تعالى بفضله وإحسـانه، الذين آمنـوا وعملـوا الصالحـات. وهـم أهـل بيعـة الرضـوان، ومن كان عـلى شـاكلتهم فى قوة الإيـمان... وعدهـم جميعاً مغفـرة لذنوبهم، وأجراً عظيـماً لا يعلم مقداره إلّا هو سـبحانه. ثـمَّ يقـول: ويجـوز أن تكون من هنـا للتبعيض، لكى يخرج مـن هؤلاء الموعوديـن بالمغفرة والأجـر العظيـم أولئـك الذين أظهـروا الإسـلام وأخفـوا الكفر، وهـم المنافقـون الذين أبـوا مبايعـة الرسـول ﷺ وأبـوا الخروج معـه للجهـاد، والذين مـن صفاتهم أنهـم كانوا: ﴿**وَإِذَا لَقُـواْ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ قَالُـوا آمَنَّـا وَإِذَا خَلَـوْاْ إِلَىٰ شَـيَاطِينِهِمْ قَالُـوا إِنَّا مَعَكُـمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْـتَهْزِءُونَ**﴾.[3]

أمـا الـرازي: فيأتي بتأويل آخر للقـو المحتمل أنَّها للتبعيض، فبعـد أن يذكر أنَّ الآية: وعـد ليغيـظ بهـم الكفـار، يقال رغـماً لأنفـك أنعم عليـه. يقـول في قولـه تعـالى: ﴿**مِنْهُم**

---

١ . تفسـير التبيـان الجامـع لعلوم القرآن، الشـيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) انظر تفسـيره للآيتـين: ٢٩ الفتح و١٧٢ آل عمـران ؛ تفسـير كنـز الدقائق، الميرزا محمد المشـهدي ٢ : ٢٨٣، الآيـة: ١٧٢ آل عمران.

٢ . تفسير لطائف الإشارات، القشيري (ت ٤٦٥ هـ)، الآية .

٣ . سورة البقرة : ١٤ .

﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾، لبيان الجنس لا للتبعيض، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض، ومعناه: ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم، والعظيم...

ابن عاشور: قال بجواز البيانية، وبالتبعيضية ولكنها أتت تحذيراً حيث يقول: أعقب تنويه شأنهم والثناء عليهم بوعدهم بالجزاء على ما اتصفوا به من الصفات التي لها الأثر المتين في نشر ونصر هذا الدين، وقوله منهم يجوز أن تكون من للبيان كقوله: ﴿فَاجتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأَوثَانِ﴾. وهو استعمال كثير، ويجوز إبقاؤه على ظاهر المعنى من التبعيض؛ لأنه وعد لكلّ من يكون مع النبيّ صلى الله عليه وآله في الحاضر والمستقبل، فيكون ذكر مِن تحذيراً وهو لا ينافي المغفرة لجميعهم؛ لأنَّ جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات وأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله هم خيرة المؤمنين.[1]

بعد هذه الوقفة، نعود إلى دعاء هذين النبيين الكريمين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وبالذات عند: ...﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾...، والذي يقول عنه سيد قطب: إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام، ... وأنَّ الهدى هداه، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلّا بالله، فهما يتجهان ويرغبان، والله المستعان. ثم هو طابع الأمة المسلمة.. التضامن.. تضامن الأجيال في العقيدة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن. إنَّ أمر العقيدة هو شغله الشاغل، وهو همّه الأول. وشعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما.. نعمة الإيمان.. تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما، وإلى دعاء الله ربّهما ألّا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام.. لقد دعوا الله ربّهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات، ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان، وأن يريهم

---

١ . تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (ت٧١٠هـ)؛ الوسيط في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي (ت١٤٣١هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت٦٠٦هـ)؛ التحرير والتنوير لابن عاشور، الآية.

جميعاً مناسكهم، ويبين لهم عباداتهم، وأن يتوب عليهم. بما أنه هو التواب الرحيم. ثم ألّا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة.[1]

وقبل الكلام عَن و مِن، في دعائهما عليهما السلام، نقف قليلاً عند الذرية لغةً: جذرها: ذرأ... والذريّة: الخلق والنسل مأخوذة من الذّرء، ذرأ اللهُ الخلق: خلقهم. وذرية الرجل: وَلدهُ، نَسْلُهُ ذكوراً وإناثاً. وفي قول: الذرية أصلها الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع. وقيل: مأخوذ من الذّرّ وهو: النشر، فيُقال: ذَرّ الشيء يَذرُّه: أي نشره. وقيل: أصله من الذّرّ، أي صغار النمل؛ لأنَّ الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم كالذّرّ، وجمعها: ذُريَّات وذَراريّ. وهي أي الذرية تُعدُّ الامتداد الطبيعي الذي يتمنّاه كلُّ إنسان، وهي إما ذريّة طيبة صالحة تقرُّ بها العيون، وتستريح بها القلوب! وإما غير ذلك... وقد جاءت في العديد من آيات التنزيل العزيز، من ذلك: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.[2] ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.[3] ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[4]

وكذا الذرية التي تناسلت، بعد أن وضعت هاجر وابنها الرضيع إسماعيل عليهما السلام في ذلك الوادي، حين أسكنهما الأب إبراهيم عليه السلام فيه، كما جاء في دعائه عليه السلام أسكنه من ذريته بجوار البيت المحرم، ولمن يأتي منهم، وبعدهم كما عبّر التنزيل العزيز: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ

١ . في ظلال القرآن: الآية.

٢ . سورة الإسراء : ٣.

٣ . سورة آل عمران : ٣٨ .

٤ . سورة آل عمران: ٣٤.

وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[1] ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.[2] وهكذا هو في دعائه الآخر أن يجعله لا هو فقط مديماً للصلاة، بل ومن ذريته من يديمها ويؤديها كاملةً على أصولها!

وإلّا فهناك أهداف أُخرى ووظائف للذين يأتون هذه الديار المقدّسة ومعالمها، تحدّث عنها التنزيل العزيز، وكان منها: ﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[3]

ولمعرفة أنَّ ﴿مِن﴾ المذكورة في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، أهي بيانية أم تبعيضية؟ ولماذا خصّا بعض الذرية دون بعض آخر؟ ومَن هي الأُمّة المسلمة في هذه الآية؟

ولأهمية هذه الأسئلة، وضرورة معرفة الأمّة المسلمة بالذات؛ لكون رسول الله صلى الله عليه وآله سيُبعث منها، نضيف هنا أقوالاً أُخر على ما ذكرناه من أجوبة بعض المفسرين عن هذه الأسئلة في الحلقة السابقة، تحت عنوان: (مِن البعضيّة) بعد أن نذكر من يجيز الحالتين (لِمن) زيادةً في الفائدة.

وقبل هذا نُشير إلى أنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام، وكما عوّدنا عليه في أدعيته، ما من وظيفة تكلّفه بها السماء، أو فضيلة ومنقبة، منحتها له، أو دعا بها لنفسه، إلّا وتمنّاها لبعض ذريته؛ ليتواصل منهج الله سبحانه وتعالى في الأرض، ويستمر تكليف السماء، وتبليغ الإسلام الذي أراداه من الله تعالى لنفسيهما ولذريتهما بين الناس؛ من ذرية واعية صالحة إلى ذرية مثلها؛ ومن أُمّة طيبة إلى أُخرى مثلها؛ ليستمر الإسلام الذي

---

١ . سورة إبراهيم: ٣٧ .

٢ . سورة إبراهيم: ٤٠ .

٣ . انظر معاجم اللغة ومنها: لسان العرب لابن منظور؛ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني: ذرية.

ينشدانه عبر ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾. عبر سلسلة طهر متواصلة إيماناً بالله تعالى وإخلاصاً وتبليغاً لشرائعه... وأما أجوبة التخصيص، فمنها أنَّ ﴿مِن﴾، في الآية تأتي للتبعيض، أي أنَّ بعض الذرية خُصّت دون بعض آخر؛ لأنَّه تعالى أعلم إبراهيم عليه السلام بأنَّ من ذريته ظلَمة... بدليل آية الإمامة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.[1]

وبدليل الواقع أنَّ الذرية ليست خالصةً مما قد يعلق بها من شوائب، بل وانحرافات وابتعاد عن الأخلاق السليمة والقيم الحسنة، فهي بين محمود السيرة ومذمومها...

الطبري يقول: وأما قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، فإنهما خَصَّا بذلك بعض الذرية؛ لأنَّ الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله عليه السلام قبل مسألته هذه أنَّ من ذرّيته مَن لا ينال عهده لظلمه وفجوره، فخصّا بالدعوة بعض ذرّيتهما.

وهو ما ذهب إليه **الطبرسي** أيضاً بقوله: وإنما خصَّا بعضهم؛ لأنه تعالى أعلم إبراهيم عليه السلام أنَّ في ذريته من لا ينال عهدُه الظالمين لما يرتكبه من الظلم.

أو أنَّه خصّهم بالذكر في دعائه عليه السلام؛ لأنهم أحقّ بالشفقة والنصيحة... وهو ما ذهب إليه **الزمخشري** في جوابه لإن قلت: لِمَ خصّا ذرّيتهما بالدعاء؟ قلت: لأنهم أحقّ بالشفقة والنصيحة. ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾.[2] ولأنّ أولاد الأنبياء إذا صلحوا، صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير، ألا ترى أنَّ المقدّمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد، كيف يتسببون لسداد مَن وراءهم؟... وهو قبل كلامه هذا ذكر أنَّ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾، واجعل من ذرّيتنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، و ﴿مِن﴾ للتبعيض أو للتبيين، كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ﴾. حيث ذكر في هذه الآية: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله ولمن معه. ومنكم للبيان، كالتي في آخر سورة الفتح،

١ . سورة البقرة: ١٢٤.

٢ . سورة التحريم: ٦.

وعدهـم الله أن ينصـر الإسـلام على الكفـر، ويورّثهـم الأرض، ويجعلهم فيهـا خلفاء، كـما فعـل ببنـي إسرائيل، حـين أورثهم مصر والشـام بعـد إهـلاك الجبابـرة، وأن يمكن الديـن المرتضى وهـو دين الإسـلام...

وكذا **النسفي** ذهب إلى ما ذكره الزمخشري.

يذكـر الـرازي: أنـه تعـالى لـما أعلـم إبراهيـم عليه السلام أنَّ في ذريته من يكـون ظالمـاً عاصياً، لا جـرم سـأل ههنـا أن يجعـل بعـض ذريتـه أمة مسـلمة، ثم طلـب منـه أن يوفـق أولئك العصـاة المذنبـين للتوبـة؛ فقال: وَتُـبْ عَلَيْنَـا، أي على المذنبين مـن ذريتنا، والأب المشـفق عـلى ولـده إذا أذنـب ولـده، فاعتـذر الوالد عنه، فقـد يقـول: أجرمت وعصيـت وأذنبت فاقبـل عـذري، ويكـون مـراده: إن ولـدي أذنـب فاقبـل عـذره؛ لأنَّ ولد الإنسـان يجري مجـرى نفسـه، والـذي يقوي هـذا التأويـل وجوه:

نكتفـي نحـن منهـا بالوجـه الأول: مـا حكـى الله تعـالى في سـورة إبراهيـم أنـه قـال: **﴿وَاجْنُبْـنِي وَبَـنِيَّ أَن نَّعْبُـدَ الأَصْنَـامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضْلَلْـنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّـاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّـهُ مِـنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّـكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.[1] فيحتمل أن يكـون المعنى: ومَن عصاني، فإنـك قـادر عـلى أن تتوب عليـه إن تـاب، وتغفر له ما سـلف مـن ذنوبه.

أبـو حيـان: **﴿وَمِـن ذُرِّيَتِنَـا أُمَّةً مُسـلِمَةً لَكَ﴾**، لـما تقدّم الجـواب له بقولـه: **﴿لَا يَنَالُ عَهـدِى الظَّالِمِـينَ﴾**، علـم أن مـن ذريتهـا الظـالم وغـير الظـالم، فدعـا هنـا بالتبعيض لا بالتعميـم ، فقـال: **﴿وَمِـن ذُرِّيَتِنَا﴾**، وخـصّ ذريته بالدعاء للشـفقة والحنـوّ عليهم، ولأنَّ في صـلاح نسـل الصالحـين نفعاً كثـيراً لمتبعهـم، إذ يكونون سـبباً لصـلاح مَـن وراءهم.

والنسـفي: وإنـا خصّـا بالدعـاء ذريتهـا؛ لأنهـم أولى بالشـفقة كقولـه تعـالى: **﴿قُـواْ أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُـمْ نَـاراً﴾**.

وكـذا قالـه **الآلـوسي**:.. وإنـا خصّـا الذرية بالدعـاء؛ لأنهم أحـقُّ بالشـفقة... ولأنهم

١ . سورة إبراهيم ٣٥ـ٣٦ .

أولاد الأنبياء، وبصلاحهم صلاح كلّ الناس، فكان الاهتمام بصلاحهم أكثر، وخصّا البعض لما علما من قوله سبحانه: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾... ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾.[1] ... وأنَّ الحكمة الإلهية تستدعي الانقسام، إذ لولاه ما دارت أفلاك السماء، ولا كان ما كان من أملاك السماء.

ابن عاشور: وقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، يتعين أن يكون ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ و﴿مسلِمَةً﴾ معمولين لفعل ﴿وَاجعَلنَا﴾ بطريق العطف، وهذا دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما، و(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ للتبعيض، وإنما سألا ذلك لبعض الذرية جمعاً بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأنَّ نبوءة إبراهيم عليه السلام تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أمماً كثيرة، وأنَّ حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء... ونظيره في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾. ومن هنا ابتدىء التعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن التوحيد واتبعوا الشرك، والتمهيد لشرف الدين المحمدي.

بعد هذا نلخص ما يقوله بعض عن هذه الذريّة التي صارت شعوباً وقبائل...

ابن إسحاق: فمن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فولد عدنان رجلين معد بن عدنان، وعك بن عدنان...

وعن **ابن هشام**:.. فالعرب كلّها من ولد إسماعيل وقحطان، وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل، ويقول: إسماعيل أبو العرب كلّها...

ابن جزى الغرناطي:.. والضمير المجرور لذرية إبراهيم وإسماعيل؛ وهم العرب الذين من نسل عدنان. وأما الذين من قحطان، فاختلف هل هم من

١ . سورة الصافات : ١١٣.

ذريـة إسـماعيل أم لا...[1]

وأمـا عـن السـؤال الثالـث: ومَـن هـي الأُمّـة المسـلمة في هـذه الآيـة: ﴿**أُمَّةً مُّسْـلِمَةً لَّـكَ**﴾؟ وهـو أمـر مهـم جـدًّا أنَّ نتعـرّف عـلى هـذه الأمـة المسـلمة التـي يكون إسـلامها خالصـاً لله تعـالى، المنبثقـة مـن ذريتهم، فهي التـي يُبعث فيهـا ومنها ذلك الرسـول الذي دعـا لـه كلٌّ مـن إبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام.

وكـما حدثنـا التفسـير والتاريخ، فلعلّهـا قريش، وهـي التي ترجـع بأُصولها وأنسـابها إلى إسـماعيل فإبراهيـم عليهما السلام، وتسـتمد وجودهـا وقوامهـا منهـا وتشرفها بها ورثتـه منهما: قوامـة البيـت وعمارتـه، وبه حظيت فضـلاً وشرفاً ووجاهـةً ورفعةً ومنزلةً بـين مَن حولها مـن أقـوام وقبائـل، كان لهـا هـذا بعد أن أسـكنها قصي بن كلاب بـدلاً من قبيلـة خزاعة، التـي أخرجهـا وآخرين من مكة، وصـارت قريش قسـمين؛ قريش البطاح الذين سـكنوا حـول البيـت؛ الأبطـح أو بطحـاء الحـرم. ولأنَّهم سـكنوا بطن مكـة بين أخشـبيها، يُطلق عليهـم: قريـش البواطـن. تُقابلهـم قريـش الظواهر، وهـم الذيـن يسـكنون ظواهر مكة بأمـر مـن قـصي الـذي لم يأذن لهـم بدخـول أبطح مكة، هذا حسـب سـكنها، أما بحسـب نسـبها فهي بطون عديـدة...[2]

أو هـي الأمّة المسـلمة كما هـو ظاهر الدعاء التـي بقيت على ديـن إبراهيم عليه السلام وشريعته

١. تفسـير جامـع البيـان في تفسـير القـرآن، الطـبري (ت ٣١٠ هــ)؛ مجمـع البيـان في تفسـير القـرآن، الطـبرسي (ت ٥٤٨ هــ)؛ تفسـير الكشـاف، الزمخـشري (ت ٥٣٨ هــ)؛ تفسـير مـدارك التنزيـل وحقائـق التأويل، النسـفي (ت ٧١٠ هـ) بتلخيص؛ تفسـير روح المعاني، الآلـوسي (ت ١٢٧٠ هـ)؛ التحرير والتنوير لابن عاشـور: الآية؛ السـيرة النبوية لابن هشـام ١: ٤ أو ١: ٢٣ ذكر سرد النسـب الزكـي مـن محمـد صلى الله عليه وآله إلى آدم عليه السلام؛ نهايـة الأرب في معرفـة أنسـاب العـرب، أبو العباس أحمـد بن علي القلقشـندي (ت ٨٢١هــ) المحقق: إبراهيم الابياري؛ التسـهيل لعلوم التنزيـل لابن جزى الغرناطي (ت٧٤١هـ) الآيـة، أو ١: ٦٠؛ وكتـب الأنسـاب.

٢. انظـر المنمـق في أخبـار قريـش لابن حبيـب: ٥؛ نهاية الأرب في معرفة أنسـاب العرب للقلقشـندي: ١٣١؛ جمهـرة أنسـاب العـرب لابن حـزم: ٥؛ وغيرها من كتب الأنسـاب.

وملّته كما في آيات، منها: ﴿... **دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**...﴾. ولعلّ منهم الحنفاء وهو ما يدفعنا للحديث ولو قليلاً عنهم، عاشوا في الجاهلية، وفي الجاهلية المتصلة بالإسلام، ومنهم من أدرك الرسول ﷺ، وهم من قبائل شتى، جَمَعَهُم رفضُهم لتعدد الآلهة، واكتفاؤهم بالإيمان بإله واحد، لا رادّ لأمره، وهو الخالق البارئ الرازق المحيي المميت..، وإيمانهم باليوم الآخر، ونبذ عبادة الأوثان، وكلّ ما يدعو للشرك.. والتزامهم بالحجّ ومناسكه وتعظيم الكعبة، وكُرههم للخمر وشربها، وامتناعهم عن أكل المَيْتَةِ والدَّمِ والذبائح التي تذبح لغير الله.. فهم على شريعة إبراهيم عليه السلام، وهناك من يقول: إنَّ منهم من اعتنق النصرانيّة دون اليهوديّة، لكون الأولى ديانة منفتحة تبشيريّة، فيما الثانية مغلقة على نفسها، فليست تبشيريّة، وتشترط على من ينتسب إليها أن تكون أُمُّه يهودّية بالرتبة السابقة..

وقد أدخل المسعودي بعض الأحناف في جماعة أهل الفترة ممن كانوا بين المسيح ومحمد، ومن أهل التوحيد، ممن يقر بالبعث. ثمَّ قال: وقد اختلف الناس فيهم، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك. فالأحناف هم الذين نبذوا عبادة الأصنام في الجاهلية، و وحدوا الله تعالى، بعد البحث والجدّ والاجتهاد، فكانوا من أتباع ملّة إبراهيم حنيفاً، ففارقوا في موقفهم هذا ما عليه قومهم.. و زيد بن عمرو بن نفيل، كان واحداً ممن ضمّهم اجتماع لقريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، و أُمّه أميمة بنت عبد المطلب، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل.

فقال بعضهم لبعض: تعلَّموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دينَ أبيهم إبراهيم. ما حجر نُطيف به، لا يسمع ولا يُبصر ولا يضرّ ولا ينفع! يا قوم، التمسوا

لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم... ومما قاله زيد بن عمرو بن نفيل في فراق قومه..:

أربًّا واحداً أم ألف ربٍّ	أدين إذا تُقسمت الامورُ
عزلتُ اللات والعزى جميعاً	كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العُزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمي بني عمرو أزورُ
ولا هُبلاً أدين وكان ربّاً	لنا في في الدهر إذ حلمي يسيرُ
ولكن أعبد الرحمن ربّي	ليغفر ذنبي الربُّ الغفورُ
فتقوى الله ربّكم احفظوها	متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جِنان	وللكفّار حامية سعيرُ
وخزي في الحياة وأن يموتوا	يلاقوا ما تضيق به الصدورُ.

وهنا نعرض لما ذكره **الرازي** في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾.

وما حكاه عن القفال في السؤال الثالث وما ذكر فيه من الإشكال، وذلك بعد أن يُشير إلى أنَّ: الظاهر أنَّ الله تعالى لو ردَّ هذا الدعاء لصرح بذلك الردّ، فلما لم يصرح بالردّ، علمنا أنه أجابه إليه. وبعد أن ذكر هذا، يقول: وحينئذ يتوجه الإشكال، فإنَّ في زمان أجداد محمدﷺ لم يكن أحد من العرب مسلماً، ولم يكن أحد سوى العرب من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وفي جوابه ينقل ما ذكره القفال: أنه لم يزل في ذريتهما من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ولم تزل الرسل من ذرية إبراهيم، وقد كان في الجاهلية: زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة (الأيادي)، ويقال: عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول اللهﷺ، وعامر (وعمرو) بن الظرب، كانوا (كانا) على دين الإسلام، يقرون بالإبداء والإعادة، والثواب والعقاب، ويوحدون الله تعالى، ولا يأكلون الميتة، ولا يعبدون الأوثان.

فهم جميعاً ـ ولعلّه بدليل سياق الآيات٢٦-٢٧ من سورة البقرة وبغيرها من آيات تتحدث عن هذا الوادي وما يتعلق ببيت الله الحرام فيه ـ ومَن كان قبلهم أهل الحرم، وهم المقصودون الذين شملهم دعاء إبراهيم بالرزق، ولكن مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾.

وبالتالي يمكن القول بأنَّهم أمّة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه على الخصوص الذين هم في: أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وهي مكة. خصوصاً وأنَّ نبيّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام إنما وقع دعاؤه لذريته سواء بالأمن وبالرزق وبالإسلام وبالصلاة و... وهو بمكة لا بغيرها، بل بوادي مكة نفسها، وهذا قرينة بل دليل على أنَّ مراده عليه السلام سكنة هذه البقعة من عهده إلى قريش بقبائلها، وبالذات إلى صالحيهم من ذرية إسماعيل عليه السلام...

صاحب المنار: ذكر الله تعالى العرب أوّلاً بنعمته عليهم بهذا البيت؛ أن جعله مثابةً للناس وأمناً، وبدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لبلد البيت واستجابة الله تعالى دعاءه إذ جعله بلداً آمناً تجبى إليه الثمرات من البلاد البعيدة، فيتمتّع أهله بها، وهي نعم يعرفونها لا ينكرها أحد، وانتقل منها إلى التذكير بالنعم المعنويّة، فذكر عهده إلى إبراهيم وإسماعيل بأن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركّع السجود؛ لينبههم بإضافة البيت إلى نفسه: إنّه لا يليق أن يعبد فيه غيره. وبتطهيره؛ لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة: أنّه يجب تنزيهه عن الأصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة، وعن سائر الأعمال الذميمة، كطواف العريان وكانوا يفعلونه. ثم ذكرهم بعد هذا بأنّ إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى هذا البيت بمساعدة ابنه إسماعيل عليه السلام، وذكر لهم من دعائهما هنالك ما يرشدهم إلى العبادة الصحيحة والدين الحقّ، ويجذبهم

إلى الإقتداء بذلك السلف الصالح الذي ينتمون إليه ويفاخرون به، فإنّ قريشاً كانت تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بحقّ، وتدّعي أنّها على ملّة إبراهيم عليه السلام، ولذلك كانت ترى أنّها أهدى من الفرس والروم، وسائر العرب تبع لقريش... ثمَّ يذكر قول أستاذه الإمام محمد عبده: قال الأستاذ الإمام: أضافا الذرية إلى ضمير الإثنين، للدلالة على أن المراد الذريّة التي تنسب إليهما معاً، وهي ما يكون من ولد إسماعيل، اللفظ ظاهر في هذا المعنى، ويرجّحه الحال والمحل الذي كانا فيه، وعزم إبراهيم عليه السلام على أن يدع إسماعيل عليه السلام في بلاد العرب داعياً إلى توحيد الله، وإسلام القلب إليه، ويرجع هو إلى بلاد الشام. وكذلك الدعاء لهذه الذريّة بأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم كما سيأتي. وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وولده عليهما السلام، وجعل في ذريتهما أمّة الإسلام، وبعث فيها منها خاتم النبيّين عليه الصلاة والسلام، وإلى هذا الدعاء الإشارة بقوله في سورة الحجّ: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾.[1]

وبالتالي حصلت من ذلك أُمّة مسلمة؛ وليتضح لنا أكثر من خلال إجاباتهم عن السؤال: مَن هي هذه الأُمّة؟!

والتي يقول عنها ابن عاشور: والأمّة اسم مشترك يطلق على معان كثيرة، والمراد منها هنا الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال من نسب أو دين أو زمان، ويقال: أمّة محمد مثلاً للمسلمين؛ لأنهم اجتمعوا على الإيمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، وهي بزنة فُعله، وهذه الزنة تدلّ على المفعول مثل لقطة وضحكة وقدوة، فالأمّة بمعنى مأمومة، اشتقت من الأم بفتح الهمزة وهو القصد؛ لأنَّ الأمة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الأمة كلّها، مثل الأمة العربية؛ لأنها ترجع إليها قبائل العرب، والأمة

١ . انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ١٢ : ٣٧، بتصرف ؛ مروج الذهب للمسعودي ١ : ٧٨ ؛ السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٢٢٢ـ٢٢٩، بتلخيص ؛ مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت٧٥٤هـ) ؛ تفسير المنار، محمدرشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ) : الآية .

الإسلامية؛ لأنها ترجع إليها المذاهب الإسلامية... ويقول أيضاً: وقد استجيبت دعوة إبراهيم في المسلمين من العرب الذين تلاحقوا بالإسلام قبل الهجرة وبعدها حتى أسلم كلّ العرب إلّا قبائل قليلة لا تنخرم بهم جامعة الأمة، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**وَابعَث فِيهِم رَسُولاً مِنهُم**﴾.[1] وأما من أسلموا من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام فلم يلتئم منهم عدد...[2]

ونبدأ بما ذكره أقدم المفسرين السُّدِّي الكبير، (ت١٢٨هـ)، قول السُّدِّي: نفرده تحت هذا العنوان؛ لأهمية قوله، ولأنه الأقدم، ولأنَّه صار محل قبول أو ردٍّ من قبل بعض كبار المفسرين. وأما قوله فهو: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾، : يعنيان العرب.[3]

وقول الطبري،ـ وكما ذكرناه في الحلقة السابقة، نعيده لنذكر ردَّ ابن كثير عليه ـ بعد أن يذكر قول السدي: وقد قيل: إنهما عنيا بذلك العرب. ذكر من قال ذلك:.. عن السدي: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾، يعنيان العرب. يردُّه الطبري قائلاً: وهذا قول يدلّ ظاهر الكتاب على خلافه؛ لأنَّ ظاهره يدلّ على أنهما دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته والمستجيبين لأمره، وقد كان في ولد إبراهيم العرب وغير العرب، والمستجيب لأمر الله، والخاضع له بالطاعة من الفريقين، فلا وجه لقول من قال: عنى إبراهيم بدعائه ذلك فريقاً من ولده بأعيانهم دون غيرهم، إلّا التحكم الذي لا يعجز عنه أحد... وأما الأمة في هذا الموضع، فيقول عنها الطبري: فإنه يعني بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ**﴾.[4]

---

١ . سورة البقرة : ١٢٩ .

٢ . التحرير والتنوير : الآية .

٣ . انظر تفسير السُّدِّي الكبير للإمام أبي محمد إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير (ت ١٢٨هـ)، جمع وتوثيق ودراسة الدكتور محمد عطا يوسف: ١٣٢ والهامش ٣ .

٤ . سورة الأعراف : ١٥٦ .

فيما ابن كثير يقول:.. وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي، فإنَّ تخصيصهم بذلك لا ينفي مَن عداهم، والسياق إنما هو العرب، ولهذا قال بعده: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾، الآية. والمراد بذلك محمدﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي**﴾ ﴿**الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ**﴾، ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود؛ لقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾.

الطوسي ـ وقد ذكرنا قوله في الحلقة السابقة ـ: وانما خصّا بالدعوة بعض الذرية في قوله: ﴿**ومن ذريتنا**﴾؛ لأنَّ (من) للتبعيض من حيث أنّ الله تعالى كان أعلمه أنَّ في ذريتهما من لا ينال العهد؛ لكونه ظالماً. ثمَّ نقل قول السدي: وقال السدي: إنما عنيا بذلك العرب. لكنه قال: والأول هو الصحيح. وهو قول أكثر المفسرين.

وتبعه في هذا **الشيخ الطبرسي**، والذي بعد أن يذكر ما جعله القول الأول: أي واجعل من ذريتنا أي من أولادنا ومن للتبعيض، وإنما خصَّا بعضهم؛ لأنه تعالى أعلم إبراهيمعليه السلام أنّ في ذريته من لا ينال عهده الظالمين؛ لما يرتكبه من الظلم. وذكر قول السدي: أراد لذلك العرب. ثم يختار الأول بقوله: والصحيح الأول، ﴿**أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾، أي جماعة موحدة منقادة لك يعني أمّة محمدﷺ بدلالة قوله: ﴿**وَابعَث فِيهِم رَسُولاً مِنهُم**﴾؛ وروي عن الصادقعليه السلام أنَّ المراد بالأُمّة بنو هاشم خاصة. وغير ذلك من الأدلة القاطعة...

الزمخشري: أراد بالأُمة أمّة محمدﷺ.

فيما يقول القرطبي: الذي ذكرنا في الحلقة السابقة أنَّه يذهب إلى (مِن) البعضيّة في قوله: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ**﴾، وحكى الطبري أنه أراد بقوله: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ**﴾، العرب خاصة. ثمَّ نقل **قول السهيلي**: وذريتهما العرب؛ لأنهم بنو نَبِت بن إسماعيل، أو بنو تيمن بن

إسماعيل. ويقال: قَيْدَر بن نبت بن إسماعيل. أما العدنانية فمن نبت، وأما القَحْطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل، أو تيمن على أحد القولين.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأنَّ دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم ...[1]

رواية أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، ذكر صاحب تفسير البرهان: عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام: قلتُ له: أخبرني عن أُمّة محمد صلى الله عليه وآله، مَن هم؟ قال: «أُمّة محمد بنو هاشم خاصة». قلت: فما الحجّة في أُمّة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: «قول الله»: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾.[2]

فلما أجاب الله إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، وجعل من ذريتهم أُمّةً مسلمةً، و بعث فيها رسولاً منها ـ يعني من تلك الأُمّة ـ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة.

ردف دعوته الأُولى بدعوته الأخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة

---

١ . انظر جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري(ت٣١٠هـ) ؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير(ت٧٧٤هـ) ؛ تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي(ت٤٦٠هـ) ؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي(ت٥٤٨هـ) ؛ تفسير الكشاف، الزمخشري(ت٥٣٨هـ) : الآية ؛ وكذا الآية ٥٥ من سورة النور. والآية ٢٩ من سورة الفتح ؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي(ت٦٧١هـ): الآية ؛ تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي(ت٧١٠هـ) ؛ تفسير البحر المحيط، أبوحيان(ت٧٥٤هـ) ؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي(ت٦٠٦هـ) ؛ تفسير فتح القدير، الشوكاني(ت١٢٥٠هـ) ؛ تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور(ت١٣٩٣هـ).

٢ . سورة البقرة: ١٢٧ـ١٢٨.

الأصنام؛ ليصحّ أمره فيهم، ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.[1]

ففي هذه دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأُمّة المسلمة التي بعث فيها محمداً صلى الله عليه وآله، إلّا من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لقوله: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾، وذكر صاحب البرهان روايةً أُخرى عن علي بن إبراهيم، في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾. قال: يعني من ولد إسماعيل عليه السلام، فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام».[2]

وعن الرواية الأولى التي أيضاً يذكرها **السيد العلّامة الطباطبائي** عن تفسير العياشي عن الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام، «قال: قلت له: أخبرني عن أُمّة محمد عليه الصلاة و السلام، مَن هم؟ قال: أُمّة محمد بنو هاشم خاصة». قلت: فما الحجّة في أُمة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: ...». وبعد أن يذكرها يقول عن استدلال الإمام عليه السلام فيها: استدلاله عليه السلام في غاية الظهور، فإنَّ إبراهيم عليه السلام إنما سأل أمة مسلمة من ذريته خاصة، ومن المعلوم من ذيل دعوته: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾.[3] أنَّ هذه الأُمّة المسلمة هي أُمّة محمد صلى الله عليه وآله. لكن لا أُمّة محمد بمعنى الذين بعث صلى الله عليه وآله إليهم. ولا أُمّة محمد بمعنى مَن آمن بنبوّته. فإنَّ هذه الأُمّة أعمّ من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. بل أُمّة مسلمة هي من ذرية إبراهيم عليه السلام.

ويواصل السيد كلامه قائلاً: ثم سأل ربَّه أن يجنب ويبعد ذريته وبنيه من الشرك والضلال وهي العصمة، ومن المعلوم أنَّ ذرية إبراهيم وإسماعيل ـ وهم عرب مضر

---

١ . سورة إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦ .

٢ . البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧ هـ)، ١٢: ٦٤٤، ١٣: ٦٤٥.

٣ . سورة البقرة: ١٢٩ .

أو قريش خاصة ـ فيهم ضال ومشرك، فمراده من بنيه في قوله: ﴿وَبَنِيَّ﴾، أهل العصمة من ذريته خاصه، وهم النبيُّ صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام، فهؤلاء هم أُمّة محمد صلى الله عليه وآله في دعوة إبراهيم عليه السلام.

ولعلَّ هذه النكتة هي الموجبة للعدول عن لفظ الذرية إلى لفظ البنين، قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، حيث أتى بفاء التفريع، وأثبت مَن تبعه جزءًا من نفسه، وسكت عن غيرهم، كأنه ينكرهم ولا يعرفهم. هذا وقوله عليه السلام: «فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام، إنما سأل إبراهيم عليه السلام التطهير من عبادة الأصنام، إلّا أنه عليه السلام علّله بالضلال، فأنتج سؤال التطهير من جميع الضلال من عبادة الأصنام ومن أي شرك حتى المعاصي، فإنَّ كلَّ معصية شرك كما مرّ بيانه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. وقوله عليه السلام: ففي هذا دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأمة المسلمة... أي إنهما واحد، وهما من ذرية إبراهيم كما مرّ بيانه.

فإن قلتَ: لو كان المراد بالأُمّة في هذه الآيات ونظائرها كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾.[1]

عدة معدودة من الأُمّة دون الباقين، كان لازمه المجاز في الكلام من غير موجب يصحح ذلك، ولا مجوّز لنسبة ذلك إلى كلامه تعالى، على أن كون خطابات القرآن متوجهة إلى جميع الأُمّة ممن آمن بالنبيّ ضروري لا يحتاج إلى إقامة حجّة.

قلتُ: إطلاق أُمّة محمد وإرادة جميع مَن آمن بدعوته من الاستعمالات المستحدثة بعد نزول القرآن وانتشار الدعوة الإسلامية، وإلّا، فالأُمّة بمعنى القوم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾.[2] وربما أطلق على الواحدة كقوله تعالى:

١ . سورة آل عمران: ١١٠ .

٢ . سورة هود: ٤٨ .

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ...﴾. وعلى هذا فمعناها من حيث السعة والضيق يتبع موردها الذي استعمل فيه لفظها، أو أُريد فيه معناها. فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

والمقام مقام الدعاء بالبيان الذي تقدم ـ لا يراد به إلّا عدّة معدودة ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله وكذا قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وهو في مقام الامتنان وتعظيم القدر وترفيع الشأن، لا يشمل جميع الأُمّة، وكيف يشمل فراعنة هذه الأُمّة ودجاجلتها، الذين لم يجدوا للدين أثراً إلّا عفوه ومحوه، ولا لأوليائه عظماً إلّا كسروه. وسيجيء تمام البيان في الآية إن شاء الله فهو من قبيل قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[1] فإنَّ منهم قارون، ولا تشمله الآية قطعاً. كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.[2] لا يعمّ جميع هذه الأُمّة، وفيهم أولياء القرآن. ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾. وأما قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[3]

فالخطاب فيه متوجة إلى جميع الأُمّة ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وآله، أو مَن بعث إليه.[4]

للبحث صلة

١ . سورة البقرة : ٤٧ .

٢ . سورة الفرقان : ٣٠ .

٣ . سورة البقرة : ١٣٤ .

٤ . انظر الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي (ت١٤٠١ هـ) : الآية، وقد آليتُ أن أنقل هذا البحث كاملاً للسيد العلّامة رضوان الله تعالى عليه لأهمّيته وفائدته!